

دور الأفكار في التغيير الإيجابي

الأستاذ الدكتور/ رشيد قوقام
قسم الفلسفة/ جامعة الجزائر 2

الأفكار تعتبر عاملا هاما في التغيير الاجتماعي والحضاري، فهي تؤدي دورا إيجابيا جدا، نعتني بذلك المنظومة الفكرية الجديدة التي تشرق على أمة ما، فتنقل إليها الحضارة الإنسانية بعد أن تكون قد خمدت لدى أمة أخرى، حيث تنتقل الأمة المستقبلية للحضارة من حال التخلف إلى حال التقدم والنماء والازدهار.

في البداية يجب أن نوضح بعض الاصطلاحات الأساسية في هذا الموضوع، منها مصطلح التغيير: فهو مشتق من التغير الذي يعني التبدل أو التحول، أي انتقال الشيء من حال إلى حال آخر مخالفا له، وقد يكون على الضد، وبمعنى آخر جعل الشيء غير ما كان عليه، والمراد بالانتقال حسب قواميس اللغة العربية هو الانتقال من الصلاح إلى الفساد، لذلك قيل: بناتٌ غيرٌ، أي الكذب والباطل.

وكذلك نجد المعنى نفسه في الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة تغير، وهي ثلاث آيات: قال الله تعالى: " ذلك بأن الله لم يكن مُغيِّرا نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم"(1).

وقال في آية أخرى: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له"(2).

وقال أيضا: " وأنهار من لبن لم يتغير طعمُهُ"(3).

وقد جاء في دعاء: لا مغيّرين ولا مبدّلين. هذا يعني أن مبدأ التغيير المتداول الآن على أساس الانتقال من الفساد إلى الصلاح لم تشهده المجتمعات العربية الإسلامية عبر تاريخها، بل الشواهد السابقة تدل على أن فكرة التغيير ليست مطلوبة لأنها سلبية، أما التغييرات الحاصلة في تلك

المجتمعات فقد يرجع إلى أفعال فردية كانت مؤثرة في الحياة الاجتماعية، لكن في لحظات تاريخية معينة، وحتى هذا التغيير الواقع لم يكن مقبولا إلا بطول الأمد أو بالقصر، بسبب غياب فكرة التغيير في حد ذاتها.

أما في الثقافة الغربية فقد نشأت فكرة التغيير من الشعور بالحاجة إلى الخروج من حال القرون الوسطى إلى حال الحضارة، وهم يعمقون هذه الفكرة من أجل المحافظة على مستوى التحضر والرقي، ويعبرون عن مجال التغيير بعدة مصطلحات مثل:

Alteration قد يترجم بالاستحالة لوقوع التغير في الكيف أو بالفساد لأن التغير يكون فيه الانتقال من حالة سوية إلى حالة شاذة. فهو تغير سلبي.

- **Changement** يترجم بالتغيير لأن الانتقال فيه يكون من حالة سيئة إلى حالة حسنة، فهو تغير إيجابي.

- **Transformation** قد يترجم بالتحوّل، لأنه يعني التبدّل الجذري.

- **Variable** يترجم بالمتغير، المراد الشيء الذي يقبل التغير.

هكذا يكون التغيير في هذا العصر يهدف إلى التقدم **Progrès** عكس التخلف والتأخر الحضاري. والتطور **Evolution** عكس الجمود والثبات على حال واحد. لهذا ارتبط مصطلح التغيير بالدراسات الاجتماعية حتى أضيفت إليه لفظة اجتماعي، وهذه الدراسات تبحث عن التغيرات الحاصلة في الحياة الاجتماعية عبر التاريخ، حيث أن التغيير الاجتماعي كمصطلح حديث يعني التقدم والتطور والنمو. من هنا جاءت نظريات التطور بتفسير ظاهرة التغيير على أساس إيجابي، لأنها تسير بالفرد والمجتمع نحو الأفضل. وقد يعني التغيير الاجتماعي في نظر علم الاجتماع ذلك الاختلاف المشاهد في البناء الاجتماعي أو العادات والتقاليد أو حتى في الوسائل والغايات⁽⁴⁾. ويمكن أن نذكر بصفات التغير الاجتماعي حسب **Guy Rocher**.

1- أنه ظاهرة عامة في جميع مكونات المجتمعات البشرية.

2- قد يؤثر في البناء الاجتماعي كليا أو جزئيا.

3- أنه يكون في زمان ما، وله بداية ونهاية.

4- أنه يستمر حتى يبلغ غايته⁽⁵⁾.

أما الأفكار الفعالة في التغيير فتتمثل في الأفكار الدينية والفلسفية والسياسية المشيدة لجهاز الدولة. لكن الأفكار مثل التغيير، منها أفكار إيجابية وأخرى سلبية. وعليه يكون دور الأفكار حسب المنظومة الفكرية التي تحملها الأمة أو المجتمع.

بما أن التغيير يلحق جميع الكائنات الحية، منها الإنسان، يقرّ العقل أن دوام الحال من المحال، لأننا نشاهد أن الصبي يكبر والكبير يشيخ والبذرة تنفق نباتا ثم ينمو، والفقير يغنى والغني يفقر، والحاضر يغيب والغائب يعود، لكن التغيير قد يكون جوهريا أو عرضيا، وإراديا أو عفويا طبيعيا. لقد أصبح التغيير مطلبا إنسانيا وحضاريا، كما أنه اكتسب أبعادا جديدة، منها سرعته في قلب الأحوال وتعميمه في أن يبدل جوانب كثيرة في الإنسان وأنماط حياته، أما العوامل المؤثرة في وقوعه فمنها الفكرية كجملة الأفكار والأحلام والآمال الحاصلة في الذهن، بالإضافة إلى عوامل أخرى موضوعية.

لذلك سنوضح كيف تؤثر الأفكار وتدفع الإنسان إلى التغيير من خلال بيان أهمية الأفكار بالنسبة للإنسان، وما مصدر هذه الأفكار، وكذلك مستوياتها. ثم نبين أن المجتمع البشري يسير دوما إلى التحضر والترقي. بعد ذلك ننظر في الثورة كوسيلة للتغيير الاجتماعي.

1- أهمية عامل الأفكار في التغيير:

إن عامل الأفكار هام جدا في اندفاع الإنسان إلى التغيير، سواء أن يغير ما يتعلق بشخصيته في جميع أبعادها أو أن يغير في محيطه الطبيعي والاجتماعي، لكن ذلك التغيير إما أن يكون إيجابيا أو سلبيا، أي أن التغيير مرهون بالدرجة الأولى بتغيير عالم الأفكار، الذي يقود الإنسان. لذلك يقال أن النشاط الفكري هو الذي نتحسس به الطريق⁽⁶⁾.

يظهر تأثير الأفكار على مطلب التغيير، من تغير المعرفة الذي يدفع دوماً إلى التقدم والتطور الفعال في مجرى التاريخ البشري، وذلك التغيير يؤدي إلى وضع ثقافة وحضارة جديدة. بمعنى أن عالم الأفكار هو بدوره يحتاج إلى أفكار لكي يتجدد، فمن ثمة لا شيء يتغير دون أفكار، لأن تاريخ الحضارة يشهد على أن اكتشاف أفكار علمية جديدة في كل الميادين هو الذي سيغير كل شيء في الإنسان ذاتاً أو اجتماعياً، روحاً أو مادة.

ويدل على ذلك قول بوانكاري: "الفكر ليس سوى بريق ليل طويل، إلا أن هذا البريق هو كل شيء"⁽⁷⁾ وهذا البريق لا يحصل دوماً، فهو يأتي من تأمل العقل من أجل المعرفة، ومن سعي الإنسان إلى الكمال، لأن قصور الإنسان ظاهر، لذلك يندفع إلى كسب المعرفة وطلب الكمال عن طريق التغيير في ذاته ومحيطه. ثم أصبح التطلع إلى المعرفة والطموح إلى ما هو أفضل ميزة من سمات الإنسان، لأن التغيير الذي طرأ على الإنسان عبر العصور كان حلماً في الذهن، فصار حقيقة، لذلك عرّف الفلاسفة الإنسان بكونه حيواناً ناطقاً أو مفكراً أو اجتماعياً عند أرسطو، وعرّفه شوبنهاور بالحيوان المتأفّيزيقي، ومهما قيل أن التغيير ليس دائماً نتيجة لتصور عقلي مسبق، بمعنى لا يحصل دائماً بوعي، بل في بعض الأحيان يحصل بغير وعي، كالتغيير الذي يحدث بردود الأفعال الجماعية، فإننا إذا بحثنا في ردود الأفعال نجد أن هناك أفكاراً تقف وراءها⁽⁸⁾.

هناك تحليلات كثيرة ترجع تقدم الفكرة على الفعل، قديماً وحديثاً، في الفكر الفلسفي أو غيره، وحتى من خصوم الاتجاه الفلسفي والعقلي، مثل ماركس الذي يعترف بأن أفضل مهندس أفضل من أمهر نحلة، لأن المهندس تحل في ذهنه البناية قبل الواقع، وهذا يدل أيضاً على أن فائض القيمة الفكري هو بدوره أتى من التغيير وإليه.

هكذا تشكّل الأفكار منظومة قواعد تحدد الأهداف وترسم خطط العمل، من هنا تؤثر في السلوكيات الفردية والجماعية، ولا نعني بهذا التأثير أنه من الأفكار إلى الواقع فقط، فالجدل قائم بين الطرفين المشكّلين لحقيقة ما. وفي هذا الصدد يرى مالك بن نبي: أن صناعة التاريخ تقوم على جدلية الأفكار والأشخاص والأشياء⁽⁹⁾، وما الحضارة عنده إلا نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع ما

الدفعة التي تدخل به إلى التاريخ، لأن الحضارة عنده حسب الجدلية السابقة عبارة عن عوامل معنوية و مادية توفرت واجتمعت لدى مجتمع ما لكي ينهض و يتطور ثم يحمل لواء الحضارة⁽¹⁰⁾.

و يؤكد مالك بن نبي على أهمية الأفكار من خلال تحليل وموازنة بين مجتمعين واحد متقدم وآخر متخلف، فلاحظ أن المجتمع المتخلف لا تنقصه الوسائل المادية (الأشياء)، بل يفتقر للأفكار، حتى لو توفرت لديه الوسائل العصرية فإنه يظل عاجزا عن الإقلاع، لأنه في هذه الحالة يفتقر إلى الفعالية⁽¹¹⁾.

مثال ذلك المجتمعات المتخلفة التي تتوفر على كافة الموارد الطبيعية، لكنها عاجزة على استخراجها وتحويلها ومعالجتها، خلافا للمجتمعات المتقدمة موارد مازالت محدودة، لكنها تتوفر على مخزون هام من الأفكار، بمعنى أن الأفكار كنز الكنوز، وليست مجرد تصورات أو خيالات تخطر على بال، بل الأفكار الحية تحمل معها الحيوية والفعالية.

هذا يعني أن الأفكار وحدها لا تؤدي إلى التغيير، إذا لم تتمتع بخصائص وأدوات تساعد على التحقق، والخروج من الذات إلى الخارج. لكن الأفكار التي تزرع الآن قد لا تغير في الحين شيئا، فيظن أنها غير هامة، فهي في الحقيقة ربما تأثيرها يظهر في المدى المتوسط أو البعيد، كما قد لا تفعل شيئا لعلّة ما أو تعدّل قليلا فقط، ويرجع ذلك إلى فتور رياح التغيير.

و يمكن الاستدلال على أهمية الأفكار في التغيير من ناحية النظريات الفلسفية والاجتماعية، التي تؤكد على التفوق العقلي لدى الإنسان على القوة العضلية، قد تكون القوة العضلية متفوقة في

المرحلة الأولى من ظهور الاجتماع البشري، وما يدعمها من استخدام أدوات أخرى، ثم تطور الأمر حسب فرويد من حال امتلاك الأسلحة على حال استخدامها بمهارة و تطويرها، إلى أن ظهرت صراعات جديدة وهي صراعات في الرأي، الأمر الذي أدى إلى الوصول إلى أعلى نقطة من التجريد، و كان حلها يتطلب أساليب و طرائق أخرى، من هنا بدأ التفوق العقلي⁽¹²⁾.

لقد استشف فرويد هذه النتيجة من التاريخ، فلاحظ أن الأفكار الآن تمثل القوة الفاعلة المؤثرة، بخلاف المراحل الأولى، لكن الأفكار تتفاوت وكذلك تأثيرها، بمعنى أن الأفكار الحالية ليست أفضل من السابقة، فالفكرة الأفضل هي التي تمارس سلطة موحدة، فضرب مثلاً بفكرة الروح الإغريقية التي عمت كيان الإغريق وجميع مؤسسات المجتمع الروحية والاجتماعية، بينما فكرة المثل العليا القومية الآن لم تستطع فعل ذلك، بل فعلها كان في اتجاه عكسي (13).

لعل السبب في ذلك أن الأمم في الوقت الحاضر أخذت تلك الفكرة بمأخذ الاندفاع والافتتان، كما تؤخذ ضروب المودة (mode)، التي يتحمس لها الناس عند ظهورها، ثم يهجرونها بظهور مودة أخرى (14). فهذا النوع من التغيير يمكن اعتباره سلبياً، طالما أنه ليس مفيداً في الثقافة أو الحضارة، وقد يكون سبباً في انهيار الدولة وزوالها إذا زاد عن حده، كما جاء في نظرية ابن خلدون أن الترف من أسباب زوال الدول.

أما دور الأفكار الإيجابي فيمكن قياسه بمدى التقدم الناتج بعد أن يبلغ التغيير مداه، حيث يقع التبدل بشكل واضح وشامل، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في قوله: " وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره، وكأنه خلق جديد " (15).

المراد بهذا النوع من التغيير عند ابن خلدون تلك الأحداث الكبيرة التي تؤسس الدول العظيمة الملك، ويسط نفوذها على الساحة الدولية، وقيام هذه الدول يكون بأفكار دينية في الغالب (16). وفي العصر الحديث يكون بفلسفة راسخة، دون استبعاد تأثير الدين.

لكن يبقى التغيير غير مأمون النتائج، لأن ما ينبجر عنه من مثالب كلية أو جزئية يجعله سلبياً، مثلما أشرنا إلى مفهومه في الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي لا يوجد تغيير إيجابي على الإطلاق أو تغيير سلبي على الإطلاق، وإنما نصف تغيير إما بالإيجاب أو بالسلب، لكونه يتضمن نسبة معتبرة من الإيجاب أو السلب.

هكذا تكون الأفكار محركاً رئيسياً للتغيير، بدليل آخر، وهو أن الأنظمة الاجتماعية وعلى الأخص السياسية قديماً وحديثاً، تراقب عالم الأفكار لمواطنيها أكثر من مراقبتها لأي شيء آخر، خوفاً

من الأفكار ومدى تأثيرها على الناس، حتى لا يتغيروا عما هم عليه، والانقلاب على تلك الأنظمة. ومادام أصحاب الأنظمة لا يستطيعون النيل من الأفكار وردّها، فإنهم ينالون من حاملها. وقد قيل في هذا الشأن:

وان تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي

تضمنه القرطاس بل هو في صدري.

ويقول ليو تولستوي: الجميع يفكر في تغيير العالم، لكن لا أحد يفكر في تغيير نفسه. بمعنى التغيير يبدأ من النفس أي عالم الأفكار نفسه.

2- مصدر أفكار التغيير:

رأينا سابقا أن التغيير الذي تحدثه الأفكار قد يكون إيجابيا أو سلبيا، ويرجع السبب في ذلك إلى نوع الأفكار، لأن فكر الإنسان فيه الغث والسمين، والحق والباطل، والخاص والعام، ولأن أيضا قيمة الأفكار تتفاوت بين الناس، حسب جبلتهم المشكّلة عبر العصور، أي أن فكرة معينة يمكن أن تحدث تغييرا عميقا في حياة أمة أو قوم، و تدفعهم إلى الرقي والازدهار، ولكن قد تحدث عكس ذلك عند الآخرين أو في زمان آخر.

قد تتشكل المنظومة الفكرية من أفكار مستمدة من تراث مجتمع ما أو من إنتاجه في الوقت الحاضر أو تكون مستمدة من فكر مجتمعات أخرى. لهذا يكون مصدر تلك الأفكار التي تدعو إلى التغيير هو ذات الأمة أو المجتمع أو تكون وافدة من الأمم أو المجتمعات الأخرى، و بعبارة أخرى فمصدر الأفكار إما داخلي أو خارجي، فالداخلي هو ما ينتجه النسق الاجتماعي بواسطة تفاعلات بين قوى اجتماعية إما ابتكارا أو استمدادا من التراث. أما المصدر الخارجي فهو ما يأتي بواسطة تأثير المجتمعات الأخرى أو من خلال علاقات التواصل⁽¹⁷⁾.

فالأفكار الداخلية تنبع من رافدين:

الأول: تصدر منه الأفكار عن طريق الإبداع والاجتهاد في شؤون الحياة المختلفة، وتمتلك هذه الأفكار قدرة على التغيير من جهة كونها أصيلة.

الثاني: هو التراث الذي تعتبر أفكاره ذات مصداقية في عيون الناس، لأنها مجربة و أثبت التاريخ نتائجها، مع ذلك، قد لا تفيد في التغيير بحكم أنها صارت معتقدا فيها، وما هو معتقد لا يستطيع أن يدفع إلى التغيير، لأنه بطبيعته يتجه إلى ذاته، أي ما هو كائن وسائد، وإن حاول ممارسة التغيير فإن هدفه لا يتعدى استبدال معتقد بآخر، وبالتالي لا يكون تغييره إيجابيا، مادام لا يدفع إلى التقدم و التطور، وفي الغالب الأعم يكون هذا النوع من التغيير ظرفيا، و تأثيره في الحياة الاجتماعية سطحيا.

إذا تأملنا واقعنا العربي الثقافي والحضاري فإننا نشعر بخيبة أمل، من جراء ممارسة مطلب التغيير الذي لم يصل بنا إلى بر الأمان مما نعانيه من جهل واستعمار وراء استعمار وتسلط وفقر والابتعاد بمسافة كبيرة عن الركب الحضاري، والأسباب في ذلك كثيرة، فمنها خمول وجود فكرنا و منها إحياء جانب من التراث الذي أكل عليه الدهر وشرب، وهو المتعلق بعصر دون عصر، ومنها التغريب وما يرافقه كالعولمة، لذلك يقول مالك بن نبي: لا يكفي الإعلان عن قدسية القيم الإسلامية، بل علينا تزويدها بما يجعلها قادرة على مواجهة روح العصر. وأما إذا أراد المسلمون إثبات صحة أفكار الحضارة الإسلامية بمنطق العصر، فلا سبيل لهم إلا طريقة واحدة، هي إثبات قدرتهم على تأمين خبز اليوم الواحد لكل فرد (18).

هذا يعني أن أصالة الأفكار لا تغني و لا تضمن من جوع في حال انعدام الفعالية، أي أن الفكرة الأصلية إذا حرفت عن حقيقتها، فهي فكرة وثن حسب اصطلاح مالك بن نبي.

إذن قوة الأفكار التي تصنع التغيير الإيجابي تستمد من أصالتها وفعاليتها. أما الوضع الحالي للعالم العربي والإسلامي فلا يمكنه ممارسة الإبداع لأنه غرق في تقليد التليد، وفي تقليد الغرب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن إحياء التراث و قراءته بوسائل وطرائق إما تراثية في حد ذاتها فالتراث لا يحياه التراث وإما معاصرة غربية وضعت لمنظومة فكرية غير العربية. كما أن الهدف من الإحياء يتعلق بالعودة إلى أنماط حياة أجيال غابرة، حيث يعود الناس فيه إلى تقمص شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية الموغلة في القدم، لذلك العرب والمسلمون بعيدون كل البعد عن عصرهم، ماعدا استغلال المتع الشهوانية وما يمنحهم الأبهة والدعة.

وإذا فحصنا جيدا عين المشكلة نجد أن إحياء التراث جعلهم يتمثلون فيه كل كبيرة وصغيرة من الأعراض، مع إهمال شبه تام للجوهر، ومن العجب أن نجعل القرآن الكريم كأنه نزل الآن، والأخلاق تنطلق الآن، وما قبل الآن فهو جاهلية، وكأن عصر النبوة ينطلق الآن.

إن أمثال هؤلاء الناس لا عصر لهم، لا هم من القدماء ولا من المحدثين، بل وضعهم ووجودهم خارج الزمان والتاريخ. لأنهم لا يناقشون بعض القضايا التي يقوم عليها التقدم الاجتماعي والثقافي والعلمي، مثل قضية التخلف وحقوق الإنسان والحكم الراشد المناسب، وقضية المرأة، وتوظيف الاجتهاد، ومناقشة هذه القضايا لا ينبغي أن تكون ترفا فكريا أو شهوة من أجل الإثبات أو النفي، وأن لا يكون النقاش تمارسه النخب فقط في الصالونات. وقد يتفاداه بعض المثقفين خوفا من التهديدات وسخط أنصار المألوفات وأصحاب النفوذ والمصالح من السلطات والقوى الضاغطة اجتماعيا (19).

هذا أما المصدر الثاني فهو فكر الأمم الأخرى، إن الفكر العربي الإسلامي يعاني من فكر الحضارة الغربية، أيستنير به للخروج من التخلف أم يدسّه في بحر الجهل والتجاهل؟ وعلى الرغم من الخبرة المكتسبة منذ أربعة عشر قرنا، في كيفية التعامل مع الفكر اليوناني وغيره، وبناء حضارة عريقة، فإننا لم نصل إلى الحل المناسب إما للنهوض بالاستعانة بحضارة العصر وإما بالمحافظة على الهوية وترقيتها.

إن تقدم الغرب مدين لأفكار إصلاحية عميقة، ساهمت في تغيير وجه أوروبا وخروجه من عصر القرون الوسطى، ثم تلتها أفكار الفلاسفة والعلماء والفنانين، الذين كوّنوا منظومة فكرية شاملة، ثم

حوّلوا تلك الأفكار إلى ميدان العمل. فأثمرت تقدما فكريا وصناعيا، الذي أتاح للغرب أن يسيطر على العالم (20).

ومن نتائج تقدم الغرب في المجال الفكري، هو ميلاد عقلانية جديدة، وانتشارها في جميع

المجالات، منها المجال الاجتماعي والسياسي، كتجريد السياسة من القدسية الدينية، والمساواة أمام

القانون، واحترام الحريات الفردية والجماعية، والسيادة للشعب، والفصل بين السلطات، والإنتاج الصناعي والتكنولوجي وغيرها (21).

أما نحن، فرحنا نتجادل حول الانفتاح على حضارة الغرب، أهو في صالحنا أم لا ؟ بدل التفاعل مع الغرب والاستفادة منه، فانتبهنا إلى انقسام يدل على هشاشة أفكارنا وضعف منهجنا في إدارة الجدل والحوار. فصرنا أمة منقسمة فريق يعادي الغرب وما يحمله، ويحارب الانفتاح الفكري، لكنه يقلد الغرب في مجالات الحياة المختلفة ويحب منعه، وفريق آخر يقبل بالانفتاح الفكري إلى درجة التفسخ والمسخ والتنكر للتراث والهوية.

يمكن ذكر بعض الأفكار والممارسات الإيجابية من الاحتكاك مع الغرب، كبروز الروح الوطنية التي قاومت الاستعمار الغربي وكبح جموحه في الوطن العربي. غير أن الفكر السياسي لم يستمد من الفكر الغربي إلا بعض الأفكار دون أبعادها، كفكرة الثورة من الثورة الفرنسية، ووضع الدستور، ولم يكن هناك تصور لأبعاد الثورة إلا الاستقلال السياسي، ولا لنظام الحكم الراشد، ولا للسياسة الاقتصادية وغيرها (22).

ولكي تصلح وتثمر وتحقق الأفكار الوافدة في غير بيتها تتصور بعض الشروط

الموضوعية:

- قابلية التطبيق.
- أن تكون ذات بعد إنساني أو عالمي.
- أن لا تتناقض مع القيم الروحية والاجتماعية للأمة.
- أن تمرّ عن طريق عالم الأفكار، حتى تفهم وتفحص من الداخل.
- أن تتصور فائدتها في التقدم والتطور الحضاري.

هكذا لم يعرف العالم الإسلامي إلى الآن إلا نوعين من الأفكار، الأفكار الميتة والأفكار

المستوردة القاتلة (23).

3- مستويات الأفكار:

الأفكار ليست ذات قيمة واحدة، كما تختلف أيضا في منابعها كالعقل والعاطفة والذاكرة والحياة الاجتماعية السائدة. لذلك يكون تأثير كل واحد منها في التغيير مخالفا للآخرى، لهذا يمكن تقسيمها إلى مستويين.

المستوى الأدنى، تتعلق أفكاره بالحياة الاجتماعية من الناحية العملية، وتحالف مع أفكار الفرد المادية وما يرتبط بالشهوات، فمثل هذه الأفكار الساذجة لا تستطيع أن تمارس التغيير الفعال الذي يؤدي إلى التقدم، فتغيرها لا يتعدى كسر الحياة الروتينية، أو كمودة زمنية محدودة.

المستوى الأعلى، تتعلق أفكاره بعالم الأفكار النظري ومصدرها العقل، لأنه هو الذي يدبر شؤون حياة الإنسان، من حيث أن العقل يمنح للإنسان البعد الروحي ويحفظ له كرامته وسلامته المادية والمعنوية، كما يساعده العقل أيضا على اكتساب المعرفة العلمية والطموح في الترقى. وبالتالي في التغيير.

أما مالك بن نبي، فيرى أن الأفكار التي تملأ أو تسيطر على عالم الأفكار نوعان:

النوع الأول: يتألف من الأفكار الأساسية الرائدة، وتمثل المخزون الأخلاقي، كمدير لشؤون الحياة.

النوع الثاني: يتألف من الأفكار العملية التاريخية، وهي عبارة عن وسائل العمل وتقنياته.

لقد وضع هذا التقسيم على أساس مدى تأثير الأفكار في التغيير، وموضوع التغيير هو عالم الأشخاص، لأن المجتمع لما يكون على عتبة الدخول إلى الحضارة، فيكون في حاجة إلى أشخاص كأدوات اجتماعية لكي يتغيروا، ثم تأتي أفكار ملهمة لتحديد العلاقات الجديدة، وتضبط الطاقة الحيوية، وبعد هذا المنطلق الحضاري تأتي أفكار النوع الثاني لتطويع المادة وعالم الأشياء لحاجات الحضارة (24).

يرى مالك بن نبي أن علاقة عالم الأفكار بعالم الأشياء يجب أن تكون متناسبة ومنسجمة، وفي هذا الصدد ضرب مثلا برجل المدينة في ملابس ريفية، فهو ريفي مزيف، ورجل الريف في ملابس الأعياد يبدو مدنيا مزيفا (25). ويعني بذلك أن هذا الرجل لا يلبس كما يفكر أو لا يفكر كما يلبس.

نستشف مما سبق أن الأفكار المجردة لا تفيد وحدها في التغيير، بل تحتاج إلى بيئة ثقافية مناسبة وأساليب وتقنية كأرضية ينطلق منها التغيير، فالأفكار التي تؤدي دور التغيير الإيجابي هي الأفكار التي تحمل في طياتها المثل والقيم العليا، وخاصة المقدس، وهذا مشاهد عبر التاريخ.

4- المجتمع البشري يسير إلى الأمام؛

ذكرنا سابقا أن المجتمع البشري الكلي يسعى دوماً إلى الانتقال من حال التخلف إلى حال التقدم، وكذلك الحضارات فالتأخرة تعمل دائماً على أن تتجاوز الحضارات التي سبقتها، بمعنى لا توجد حضارة متخلفة، لأن الهدف من التغيير الحضاري هو التقدم والترقي، لعل فكرة المجتمع البشري يتطور وفق نظام طبيعي، ويسعى إلى أن يبلغ كماله ويحقق أهدافه ظهرت مع فلسفة هيغل التاريخية، وقد أسسها على مبدأ الحتمية التاريخية، كما جعل المسار متعلقاً بالروح، وهي تجسد من خلال الطبيعة -حركة الشمس- بواسطة تلك المراحل، وهي عبارة عن نسق يعكس مدى تدرج العقل في نموه، وأيضاً مدى تحقيق معنى الروح، وتجسيد المثل العليا على أرض الواقع، أما ماهية الروح فهي الحرية، وتحقيقها يكون بمدى نمو وانتشار الوعي وتمتع كل أفراد البشر بالحرية⁽²⁶⁾.

هكذا يتصور هيغل مسار التاريخ البشري على أنه مبني على وعي وتحقيق الحرية، كأفكار عقلية، كما أن التغيير يكون حتمياً، لأنه محتوي في طبيعة الخطة المرسومة لتدرج انتشار إشعاع الحرية، فكل مرحلة تنقضي لما تبدأ ملامح مرحلة أخرى بالبروز.

و تلك الخطة تسير في اتجاه مستقيم وليس دائرياً، الأمر الذي يجعل الأمة الحاملة للواء الحضارة، لا تستطيع أن تسترجع لواء الحضارة مرة أخرى، فالحضارة المعاصرة غربية بالطابع، فلا تنافسها الحضارات السابقة، لأنها لا تستطيع أن تبعث من جديد، ونجد كثيراً من مفكري العرب يزعمون أن أهل الحضارات القديمة كالصين والهند يشاركون الغرب نداءً لنَد في الإنتاج الحضاري، فنقول: هناك فرق شاسع بين صناع الحضارة والذين يعيشون تحت أجنحتها. أما التدرج بالإنتاج المادي، فإنه لا يعتبر إنتاجاً حضارياً للصين أو غيرها من بلدان جنوب شرق آسيا، ولأنهم مقلدون

فقط، وإنتاجهم لا يتعدى الإنتاج المادي، وهو مقلد أيضا، كما أن دولهم لا تحارب الإنتاج المقلد مثلما يفعل الغرب.

هكذا أصبح التغيير فكرة هامة في العصر الحالي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعتبر ظاهرة وهدف في حياة المجتمع البشري، حيث تسعى بحوث في مجالات مختلفة إلى اكتشاف القوانين المتحركة فيه، من أجل التحكم في مجرى الحضارة، لكي تستمر آمادا طويلة.

ومادام التغيير سمة العصر، وكان هدفا ومطلباً لدى أهل الحضارة الحالية، لذلك أقاموا له مؤسسات للبحث وأخرى للتخطيط، فبدل أن يترك للصدفة أو للحتمية، صار الآن مشروعا مؤسساتيا في البلدان المتقدمة، أما في المجتمعات العربية فلا أثر لإرادة التغيير، لأنها تنتظر من الفرد أن ينهض بالتغيير أكثر من الجماعة، قال حاكم عربي: على الباحث أن يقدم لنا اختراعه، عندئذ سنعطيه قفة من النقود، وفي الوقت نفسه فإن هذه المجتمعات المنهارة لا يمكن أن تواصل مسيرتها بعقول خاوية ومحشوة بأفكار ميتة، وضائر حائرة وروابط متهدمة، على حد وصف مالك بن نبي لها (27).

إذا كان الغرب يتبنى التغيير المستمر للمحافظة على درجة التفوق الحضاري، فأما نحن فنبتني المحافظة على الموروث خوفا من الضياع والاستسلام للعصر.

يقول هنري بوانكاري: " فإن الإنسان لا يمكن أن يكون سعيدا بواسطة العلم، ولكنه اليوم أقل قدرة على أن يكون سعيدا بدونه " (28). يفهم من هذا أننا ما نزال لم ندرك حقيقة العلم، - أي الأفكار - وقيمتها، لأننا ننظر إليه بعين غير مبصرة. لذلك قال مالك بن نبي: "إن أقل الناس اقتناعا بالقيمة الاجتماعية للأفكار: هو في الغالب المثقف المسلم " (29).

5- فكرة الثورة والتغيير الإيجابي:

الثورة *La révolution* اصطلاحاً تعني جملة أفكار ونشاط لمحاربة الظلم والاستبداد، وفي أكثر الأحيان لا تكفي بالتغيير السياسي، فتسعى إلى التغيير الثقافي والاجتماعي وفي أحيان أخرى قد تتجاوز ذلك كله إلى تغيير في جوانب روحية.

كل ثورة تزعم أنها تأتي بالجديد، وتعد الناس بجنة فوق الأرض، ويرافقها شعار التغيير، وقد تشترك الثورات في شعاراتها منذ الثورة الفرنسية الملهمة لكل نزعة ثورية، التي حملت شعارات كبيرة كالحرية والمساواة ومنح السلطة للشعب وفصل الدين عن الدولة ووضع الدستور وإتباع نظام الجمهورية.

غير أن الثورات لا تقود كلها إلى التغيير الإيجابي، ويرجع ذلك إلى عدم وضوح الأهداف أو إمكان الانحراف عنها أو الارتجالية في قيامها وتسييرها أو كونها خالية من الأفكار السامية أو تكون شعاراتها مجرد ألفاظ جوفاء.

لهذا يجب الإعداد للثورة قبل انطلاقها وتستند إلى مرجعية فلسفية أو دينية، ثم حسن تسييرها، لأن العنف والقوة لا يساعدانها على النجاح المطلوب، ثم حسن إدارة المجتمع بعد انتصارها. بمعنى الثورة مرتبطة بالإنسان ككائن حي، ينبغي أن يكون نموها عضويا وتطورها تاريخيا، أي خلل في أفكارها وأهدافها وتسييرها ستكون النتيجة زهيدة وخيبة للأمال، فالثورة الفرنسية الرائدة، كان لها مقدمات فلسفية، أمثال فلسفة روسو مع ذلك عرفت خللا في التسيير وردة من أشباه الثوريين⁽³⁰⁾.

وإذا اعتبرنا الإسلام ثورة، لأنه ثار على بناءات المجتمع، وقد غير بها بما جاء به من أفكار سامية وقدسية دينية، كما أحسن إدارتها، وانتقاء قيادتها وممثليها، وحتى الناشطين فيها ومسانديها، فنذكر على سبيل المثال الحديث النبوي الشريف: "لا يقاتل معنا إلا من هو على ملتنا"⁽³¹⁾ والمراد دعم عبد الله بن أبي، رأس المنافقين، ثم نزلت آية تؤيد هذا الموقف وهي قوله تعالى: "لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا"⁽³²⁾. ينبغي على الثورة أن لا تعتمد على المرتزقة وما إلى ذلك من الرذائل كالغرور والإفراط في استعمال العنف⁽³³⁾.

لهذا نتصور نجاح الثورة من خلال توفر شرطين أساسيين يتعلقان بالمستويين من الأفكار المذكورة آنفا:

الأول: توفر المرجعية الفكرية، التي تبين فساد ما هو سائد، وما يجب تغييره، مع اقتراح البدائل.

الثاني: أن يكون النشاط الثوري عملا جماعيا ومخططا، لا مجرد تصرفات فردية أو عشوائية مثل الاضطرابات والاعتصامات والمسيرات وقطع الطرق، فهي غير مجدية في التغيير.

فالمهمة الأساسية للثورة هي انتقاد مظاهر الظلم في المجالات المختلفة وانتقاد السلوكات الثقافية المكرسة للفساد، ويرافق ذلك البدائل، مع استخدام أساليب الإقناع. لأن نجاح الثورة مرهون بمدى اقتناع الناس بمشروعها.

و الملاحظ على النشاط الثوري في الوطن العربي، أن الثورات المقاومة للاستعمار سعت إلى الاستقلال السياسي أولا، ثم بعد نيل الاستقلال حاولت تغيير البناء الاجتماعي، لأن بعضا من أفكارها يهدف إلى ذلك، بحكم الاستعانة بالإيديولوجية اليسارية، لكن بمرور الزمن ظهرت ثورات مضادة وانقلابات عسكرية بقيادة أشخاص أو فئات أو جماعات، ربما تحمل الأفكار نفسها، التي رفعتها تلك الثورات ضد الاستعمار، كما برزت ظاهرة معارضة الثوار لبعضهم البعض الآخر.

يمكن القول أن الثورات السابقة وقع فيها خلل أو انحراف في المبادئ، فإن الجديدة مثلها، وإذا كان في الأشخاص فمن يضمن عدم انحراف الثوار الجدد، وإذا كان في الآليات الثورية فالجديدة مثلها أيضا. لأن الثورات نشأت كالفطريات لم يسبقها إعداد، وليس لها مرجعية محددة، فإنها جاءت كرد فعل على استبداد الحكام وتهويل الإعلام وسند من الاستعمار الجديد، وهي قائمة على حشد الجماهير وسفك الدماء، بينما فكرة الثورة كما سبق أن أشرنا، هي أفكار سامية تتعلق بالروح والقيم الإنسانية، وليست مجرد تغيير من أجل التغيير، فهي تشبه الانقلابات العسكرية، في منطلقاتها وآلياتها ومبرراتها، وإنما تولى أمرها الجمهور، لذلك يمكن تسميتها بالانقلابات الجماهيرية، بعد أن انتخبت أو زكت حكامها بنسبة مطلقة منذ أيام قليلة قبل الانقلابات.

هكذا يصنع العرب تاريخا جديدا في عالم السياسة، بالانقلابات الجماهيرية، ومساعدة الاستعمار الجديد على تفتيت الوطن العربي إلى كيانات ذرية يصعب جمعها، لكي يسترجع الكيان العربي عافيته، ويستمر في الوجود، أما علاج استبداد الحكام فيرجع قسط معتبر منه إلى الشعوب التي تنتخب وتزكي دون وعي، طبعا المفكر العربي له قسط آخر، يطول الكلام عنه، سيحلل في مقام آخر.

إن مبررات وأهداف الحراك العربي لا يقتنع إلا الجماهير الغاضبة من الأوضاع السائدة، نذكر بقول لمالك بن نبي: إن بعث الإنسان ليس ثمنه ضمان حقوقه فقط⁽³⁴⁾. لهذا من حقنا أن نتساءل عن مصير العرب. ونفلق على مستقبله، ونغار على هويته وتاريخه.

لا ننفي ارتباط الثورة بمصالح الجماهير، بل نفكر في سبيل تحقيق مصالح تلك الجماهير، لأن أساس التغيير الإيجابي كما تقدم شرحه، هو إنتاج أفكار سليمة قبل اندلاع الثورات، أي لا بد من قيام ثورات فكرية متزنة، حتى تتوعى الجماهير، وتكون في حالة حسن استقبال الثورة. ومن ثمة تساعد على تحقيق أهدافها التي ترجع بالفائدة على الفرد والجماعة. ومن الشواهد التاريخية على تقدم الثورات الفكرية على الثورات الاجتماعية، كالإسلام، والثورة الفرنسية والثورة الصينية.

ينبغي أن نميز بين الثورة وتمرد الجماهير، وهذا الأخير يعتبر ظاهرة العصر الحالي، أساسها التجمهر والزحام، مما جعل قيمة الأشياء تقاس بمدى تهافت الجماهير عليها، مثل عدد المتظاهرين أو المنشقين أو عدد القراء والطبعات، أو عدد المشاهدين للحفل الخ...، إن هذه القيمة العددية لا توجد قيمة نوعية تقابلها في الحياة الاجتماعية، أي أصبحت العبرة بالشارع، وليس بغيره من الأماكن الشريفة وأهلها.

هذا لا يعني أن الحكام لا ذنب لهم في الوضع الذي عليه العرب اليوم، بل الفساد والانحراف ظاهر من جانبهم، أغلب البلدان العربية عرفت حركات ثورية ضد الاستعمار في القرن الماضي. وكذلك الانقلابات داخلها، لكن الغريب والعجيب أن ثوار العرب تحولوا إلى ملوك في إدارة أوطانهم، ماعدا الخطاب السياسي، من أجل شرعية الحكم، حيث نصبوا أنفسهم حكاما وقضاة ومعلمين وخبراء، بالإضافة إلى معاشهم وقصورهم كملوك القرون الوسطى، والأدهى والأمر تورث الحكم لأهلهم، والعلو على القانون، إن خيانة مبادئ الثورة وأهدافها لا يستمر طويلا، لأن الله تعالى لا يرضى بالظلم والفساد، كما أن الأجيال ستتقمم لا محالة آجلا أم عاجلا. فالعلاقة بين الأفكار والثورة هي الوفاء.

خاتمة: نستخلص مما تقدم، أن كل بناء له منظومة فكرية يستند إليها، فيكون راسخا، وبالتالي فالتغيير الحقيقي والإيجابي هو الذي يتوغل في أفكار ذلك البناء، وإذا قسنا الأوضاع العربية في كل الميادين بما يجب أن يكون حسب المقاييس العلمية في شأن التغيير، فإن كل الحلول الفكرية والحركات الاجتماعية قد تعثرت، بل في بعض الأحيان زادت الطين بلة، لأن التخلف والانحطاط لم ينتهيا بعد، بل لم يتقلصا قيد أنملة، حيث نشاهد كل مظاهر الانحطاط الموجودة في الماضي ما تزال قائمة اليوم. يمكن حصر أسباب ذلك في النقاط التالية:

- الكتابات الفكرية في شأن النهضة والإصلاح والإحياء والمعاصرة تتسم بنضال أصحابها، ونشاطهم لا يختلف عن النشاط الدعوي، أي ليسوا مفكرين أحرارا.
- عدم استشراف المستقبل والأخذ بأسباب الحضارة.
- الفهم السيئ للتراث والتمسك بجزئياته بدل كلياته، وكذلك الإسلام.
- عدم التفاعل مع المحيط الدولي باستراتيجية، بل بمصالح وأهواء.
- تعظيم الجهاد الأصغر على الأكبر.

ومن ملامح التجمد وصعوبة إحداث التغيير والسعي قدما إلى الأمام، ما لاحظته لورنس على العرب في قوله: عدم إخلاصهم لأفكارهم وعقولهم جعلهم عبيدا مطيعين⁽³⁵⁾. ثم يضيف: فلم يكن بإمكانهم أن يغيروا أفكارهم وأيضا سلوكهم بسرعة، ولم يكن من السهل إخماد الروح الثابتة الصلبة بينهم⁽³⁶⁾. كما يثقون في الأشخاص أكثر من المؤسسات، ليكن في علم الجميع أن إقامة الديمقراطية يحتاج إلى وقت طويل.

الهوامش:

- (1) سورة الأنفال. الآية 53.
- (2) سورة الرعد. الآية 11
- (3) سورة محمد. الآية 15
- (4) الخولي سناء، التغير الاجتماعي والتحديث، دار المعرفة الاجتماعية، الاسكندرية 1993 ص 15.
- (5) محمد عبد المولى الدقس، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق. ط 1 دار مجدلاوي، عمان 1987. ص 16-17.
- (6) زكي نجيب محمود. ثقافتنا في مواجهة العصر. ط 2. دار الشروق بيروت 1979. ص 207.
- (7) هنري بوانكاري. قيمة العلم. تر/ الميلودي شغوم. دار التنوير بيروت 2006. ص 165.
- (8) حازم البيلوي، التغير من أجل الاستقرار. ط 1 دار الشروق بيروت 1992. ص 20.
- (9) مالك بن نبي. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. تر/ بسام بركة، أحمد شعبو. ط 6 دار الفكر دمشق. دار الفكر المعاصر بيروت 2006. ص 75.
- (10) المرجع نفسه. ص 41-42.
- (11) المرجع نفسه. ص 36.
- (12) سيغموند فرويد، أفكار لأزمة الحرب والموت. تر/ سمير كرم. ط 2 دار الطليعة. بيروت 1981. ص 45.
- (13) المرجع نفسه. ص 50.
- (14) حاتم الكعبي، التغير الاجتماعي وحركات المودة. ط 1 دار الحداثة. بيروت 1982. ص 55.
- (15) ابن خلدون، المقدمة. دار العودة. بيروت (د.ت). ص 26.
- (16) المرجع نفسه. ص 124.
- (17) محمد عبد المولى الدقس، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق. ص 20.
- (18) مالك بن نبي. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص 113.

- 19) تيسير الناشف. السلطة والفكر والتغير الاجتماعي. ط1 أزمة للنشر والتوزيع. عمان 2003.
- 20) أنور عبد الملك. تغيير العالم. سلسلة عالم المعرفة رقم 95. الكويت 1985. ص 84-85.
- 21) علي المحجوبي. العالم العربي الحديث والمعاصر، تحلف فاستعمار فمقاومة. ط1 دار محمد علي، تونس 2009. ص 24-25.
- 22) جماعة. الديمقراطية في العالم العربي. منشورات الجمعية اللبنانية للعلوم السياسية. بيروت 1959. ص 188-189.
- 23) مالك بن نبي. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص 75.
- 24) المرجع نفسه. ص 57-58.
- 25) المرجع نفسه. ص 33.
- 26) هيجل. محاضرات في فلسفة التاريخ. ج 1. تر/ إمام عبد الفتاح إمام. ط2. دار التنوير. بيروت 1981. ص 80-81.
- 27) مالك بن نبي. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص 56.
- 28) هنري بوانكاري. قيمة العلم. ص 7.
- 29) مالك بن نبي. مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ص 83.
- 30) مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه. دار الفكر المعاصر. بيروت 2002. ص 14.
- 31) حديث. لم نعثر له على سند.
- 32) سورة التوبة. الآية 47.
- 33) مالك بن نبي. بين الرشاد والتهيه. ص 15-16.
- 34) المرجع نفسه. ص 26.
- 35) لورنس توماس إدوارد. أعمدة الحكمة السبعة. تر/ محمد نجار. ط2، الأهلية للنشر. عمان 2001 ص 33.
- 36) المرجع نفسه. ص 38.

الذاتية الفردية من الوجهة الاجتماعية والفلسفية في طريق الكشف والإبداع

الدكتور محمد شطوطي

في هذا المقال محاولة لتعريف الذات الفردية كعامل أساسي في كل تقدم فالإنسان الفرد هو الذي يمثل الإنسانية في ذاته بكل معطياتها، وبكل معانيها.. فإذا أردنا التقدم والتطور، فإن الاهتمام بالذاتية الفردية هو الطريق إليها لا غير.

1- مفهوم الذاتية الفردية؛

الذات، أو الأنا، أو الفرد هي ألفاظ تشير في الأصل إلى معنى واحد في شيء واحد، وهو الذاتية الفردية، وهي في ذات الوقت تعبير عن الشيء بأنه (هو، هو) ولا يمكن أن يكون غير ذلك، فالذاتية الفردية هي وحدة النشاط النفسي للفرد⁽¹⁾ وهذا النشاط يختلف من فرد إلى فرد بالتأكيد إنه مبدأ منطقي لا يمكن أن لا يكون، ألا وهو مبدأ الذاتية... وبعضهم يطلق على الذاتية الفردية (الأنا الإنساني)⁽²⁾ *Le moi Humain* أي الإنسان الفرد الذي ليس له من ينوبه أو أن يكون ذاته... في يوم من الأيام !! ودليلنا في ذلك (أن الذاتية الفردية ترجع كل حكم وجوديا، أو تقديريا إلى أحوال أو أفعال شعورية فردية)⁽³⁾، ولا يمكن بحال من الأحوال أن تكون هي ذات الشعور عند غيرها.

وبمعنى آخر أن الأنا أو الذاتية الفردية هي في طريق الشخصية أو هي تنوبها في كثير من الحالات، كمواقف، فالذاتية الفردية والشخصية شيء واحد عندما تكون مع الآخر...⁽⁴⁾، ولأن الشخصية هي الموضوع الأول والأخير في علم النفس فإن الشخصية مظهر للذاتية الفردية لا غير، وبها نتعرف عنها وليس هناك شيء آخر ولأن (الذات أهم من لفظة الشخص لأن الذات تطلق على الجسم وغير الجسم، والشخص لا يطلق إلا على الجسم)⁽⁵⁾ هذا الذي بمظهره يمكن التعرف على الذات (أي الذاتية الفردية) بمعنى أدق والذاتية الفردية هي من مفهومين، مفهوم نفسي وهذا له ما